الفتوة عند الصوفيين

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

أما المنزلة الثالثة فهي تختص بما يكون من الفتى نحو خالقه ، وهذه المنزلة تشتمل على أمور ثلاثة :

أما الأمر الأول : فهو أن الفتى يجب ألا يتعلق في السير للوصول إلى الحضرة الربانية بدليل ، فالسائر في طريق الوصول إلى هذا المقصد يسير على قدم اليقين ويستدل في طريقه بالبصيرة والمشاهدة ، ويسترشد بما تقع عليه عينه من آيات باهرة تدل على قدرة الله وكمال ذاته ، فاسترشاده بغير هذا وسيره مع الدليل آية على عدم نفاذ بصيرته وسلامتها ، ودليل على أنه لم يخلص في طلبه ولم يشم رائحة اليقين ؛ وفي هذا قال بعضهم (من طلب نور الحقيقة على قدم الاستدلال لم تحل له دعوة الفتوة أبداً) . والمعرفة عندهم ضرورية لا استدلالية ، لأن الرسل عليهم السلام لما أرسلهم الله سبحانه وتعالى إلى عباده ، دعوهم إلى عبادته وتوحيد ذاته ولم يدعوهم إلى الإقرار بالله سبحانه ، بل دعوهم دعوة من لا يشك في وجود القدرة الإلهية ، وأن الله هو الصانع الحكيم ، وخاطبوهم خطاب من ليس عنده أدنى شبهة في الإقرار به ، وأن وجوده ليس في حاجة إلى الاستدلال عليه ، ولا مرشد للسير في طريق الوصول إليه ، فخاطبوهم قائلين : (أفي الله شك فاطر السموات والأرض؟)

وكيف يدعي الفتوة من يطلب الاستدلال على من هو أظهر من دليله بل هو الدليل والمدلول ؛ فالقاصد له من نوره ودلائل قدرته وآثار حكمته أكبر دليل ، ومن خلص قلبه وكمل إيمانه وتفتحت بصيرته وضح أمامه الطريق وظهرت له معالم الشهود فيرى المشهود بغير دليل ، ولا ينال هذه المرتبة إلا من أفنى نفسه في ذات مشهوده وترك ما سواه ؛ وهذا هو معنى الأثر الإلهي (إذا أحببت عبدي كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، فبي يسمع وبي يبصر) .

أما توقف طالب الوصول وتقيده بالدليل الذي يهديه الطريق ، دليل على الشك في إخلاصه . ومن يطلب الاستدلال على الوحدانية والمعرفة وكل آثاره جل علاه دلائل قائمة على وجوده ووحدانيته ومشيئته وقدرته — فليس له أدنى درجة من الفتوة بل يكون مخالفا لها من كل أوجهها .

سئل أحدهم عن ذلك فقال : لو أن رجلا بعث لك رسولا يدعوك إلى داره فقلت للرسول : لا أقوم معك حتى تقيم الدليل على وجود من بعثك ، وأنه مطاع في أهله وأنه أهل لأن يقصد

لا يخفى على ذي عينين ...

حذار من أولئك الثعالب لا تبذل لهم مقادتك ، فإنهم لا أيمان لهم ، ولا عهود عندهم ، ولا مواثيق لديهم « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون » .

فثق بنفسك ، وتوكل على ربك ، واستعن بإخوانك العرب في مصر التي تعلم سهولها الكرامة ، وفي سوريا التي تاق بطاحها دروس الشهامة ، وفي لبنان الذي تعود جباله الشم على الصبر ، وفي الحجاز الذي يهدي صعيده الطيب إلى الطهر ، وفي العراق التي تلهم واحاتها الشجاعة ، وفي الأردن الذي توحي وديانه البسالة ، وفي اليمن التي تحبب رياضها بالإيمان ، وفي الجزائر التي تزين رمالها الكفاح ، وفي كل قطر عربي لا ينام عن حقه ، ولا يفقد ثقته بنفسه ، ولا يزيد — إذا ما بهرته الشدائد ، وعصفت به الأهوال — على أن يهتف بملء صوته ، ومن أعماق قلبه ، هتاف فخر العرب وسيد الخلق محمد بن عبد الله صلوات الله عليه يوم قال لعمه أبي طالب : « والله يا عم ! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

فلتأس جراحك بهذه الكلمة النبوية الطاهرة فإنها خير بلسم ؛ ولتمسح بها الدموع عن وجنتيك ولا تضرب بكفك ولا تلطم . ثم إذا بقي الدهر يعاندك ، وظل العدو يجالدك ، فلك الله أيها العربي وهو خير الناصرين .

(طرابلس الشام) صبحي ابراهيم الصالح

ويغشى بابه ، لكنت فى الفتوة دعيا) فكيف تطلب الدليل على من وجوده ووحدانيته وقدرته وربوبيته أظهر من كل دليل تطلبه ، وأقوى من كل برهان تستدل به ، فما من دليل يطلب للاستدلال عليه إلا ووحدانيته وكماله وعفوه وإحسانه أظهر من كل دليل . فأبعد الناس عن الفتوة من طلب الدليل على من هو دليل على نفسه .

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

فالسالك الصادق صاحب اليقين الذى وهبه الله نور البصيرة وكشف له عن جوهر الحقيقة لا يحتاج إلى دليل ، لأن تقيده بالدليل يفرق عزمة قلبه . وهذا انقطاع وخروج عن الفتوة ، وفى هذا قالوا : إن الدليل يفرق والمدلول يجمع ، فالسالك يقصد الجمعية على المدلول ، فماله ولتفرقة الدليل . وشبهوا المتفيد فى سلوكه بالدليل بالمتكلم الذى يفنى حياته بحثاً فى الزمان والمكان والجوهر والأعراض ، ويقصر همه على هذه الأشياء لا يتجاوزها للوصول منها إلى خالق الكون وعبوديته وتقرير وحدانيته بمقتضى أسمائه وصفاته ، لا يشتغل قلبه بسواه ولا يطلب دليلا على من هو أقوى دليل ، قال الحلاج : (إن المتكلم مستغرق فى معرفة حقيقة الزمان والمكان ، والعارف قد ضنّ بالزمان أن يذهب ضائعاً فى غير السير إلى رب الزمان والمكان) .

والأمر الثانى : أن تكون وجهة الفتى صادقة ، وإجابته لداعى الحق خالصة ، لايشوب محبته بعوض ، ولايطلب من الحظوظ غير الاستغراق فى محبة معبوده والفناء فى ذاته ؛ فإن فعل ذلك فقد نال كل حظ وفاز بكل عوض كما فى الأثر الإلهى :

(ابن آدم ! اطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتك فاتك كل شىء . أنا أحب إليك من كل شىء) .

فالفتى من يعبد ربه حق العبودية لا يطلب منه أجراً على إخلاصه ، فإذا طلب العبد من سيده أجراً على قيامه بخدمته له سقط من عين سيده وصار عنده أحق بستوجب العقوبة ؛ إذ أن عبوديته تقتضى خدمته ، والذى يخدم بالأجر لا عبودية للمخدوم عليه ، ولا مكان لسيده عنده ؛ وهذا إما أن يكون حراً سيده نفسه أو مملوكا لسواه .

والخلق جميعاً عبيد الله وملكه التصرف فيه ، فهم يخدمونه بحق عبوديته لهم وملكيته إياهم ، فطلبهم للأجر خروج عن محض العبودية وخلاف ناموس الخضوع ؛ فالعبد الذى لايشوب خدمته بطلب العوض هو القرب من مولاه الأثير عنده .

سئل أحدهم عن معنى هذا فقال : (إذا كان لك من العبيد أربعة ، أولهم لا يريدك ولا يريد منك ، بل قلبه متعلق ببعض عبيدك فله يريد ومنه يريد ، والثانى يريد منك ولا يريدك ، فهذا إرادته مقصورة على نيل حظوظه منك ، والثالث يريدك ويريد منك ، فهذا يخدمك ويتقرب إليك لنيل مايبغى فإرادته لك وسيلة . والرابع يريدك ولا يريد منك ، فإرادته مقصورة عليك وعلى مرضاتك ، فهو لا شك آثر الجميع عندك وأقربهم منزلة منك وأحبهم إلى قلبك والمخصوص من إكرامك وعطاياك) .

ويظهر إخلاص العبد لسيده فى القيام بواجب الشكر على ما أولاه من نعم ووهبه من عطايا ؛ لأن حقيقة الشكر عبادة والشكر والشكر مبنى على قواعد خمس .

خضوع الشاكر للمشكور ، والفناء فى حبه ، والاعتراف بنعمه ظاهرها وباطنها والثناء عليه بهذه النعم — أى الإحسان منها إلى عباده وانفاقها فى أوجه الخير ، وهذا هوا الثناء بالنعم على المنعم — وألا يستعملها العبد فيما يكره سيده ، والاعتراف بأن هذه النعم قد تفضل بها السيد على عبده وهو ليس أهلا لها . قال الجنيد : (الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة) ومن أنواع الشكر أن يفنى العبد نفسه فى ذات المنعم عن رؤية النعمة فلا تحجبه رؤيتها عن مشاهد التفضل عليه والمنعم بها . قال الشبلى : (الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة) .

والشكر درجتان : شكر العامة ويكون على المأكل والمشرب والملبس وقوة الأبدان وأعراض الدنيا ، وهذا ليس من الفتوة فى شىء ؛ وشكر الخاصة ، ويكون على التوحيد والإيمان وقوة القلب وصفاء النفس . ومعنى هذا أن يكون بالقلب خضوعاً واستكانة ، وباللسان اعترافاً وثناء ، وبالجوارح طاعة وانقيادا ، وهذا من خصائص الفتوة ، وكلما ازداد العبد شكراً ازداد المنعم عليه تفضلا ومنه تقريباً ؛ فى الأثر الإلهى : (أهل شكرى أهل زيادتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى) ويزيد بعضهم نوعاً ثالثا من الشكر وهو أن يكون على ابتلاء الله الذى ينزله بعبده ، فيعتبرون

هذا البلاء نعمة يذكرهم الله بها فهم دائماً فى حضرته .

سأل رجل جعفر الصادق رضى الله عنه عن الفتوة ، فقال له ما تقول أنت ؟ فقال الرجل إن أعطيت شكرت وإن منعت صبرت فقال جعفر : الكلاب عندنا كذلك . فقال له السائل : يا ابن رسول الله فما الفتوة عندكم ؟ قال له : ان أعطينا آثرنا ، وإن منعنا أو ابتلينا صبرنا) وقال آخر : (الفتوة هي إظهار النعمة وإسرار المحنة) .

أما الأمر الثالث من هذه المنزله : فهو إعراض الفتى عن نفسه وعدم انشغاله بها ، وإهماله مطالبها ، وإذلالها فى سبيل الوصول إلى مقصوده الأسمى وغرضه الأعلى وأن يتهمها دائماً بالتقصير وبأنها العائق فى طريق وصوله ، فيخاصمها فى الله فيكون كما قال محمد بن على الترمذى : (أن تكون خصما لربك على نفسك) فيضعها دائماً موضع المتهم ليطامن من كبريائها ويحطم هذا الصنم الذى بينه وبين ربه ليصفو قلبه ولا ينشغل بسوى حبه والفناء فى حضرته . قال الجنيد : (الفتوة كسر الصنم الذى بينك وبين الله تعالى ، وهو نفسك) كما قال عمرو بن عثمان المكى (حرون خداعة رواغة فاحذرها وسقها بتهديد وخوف يتم لك ما تريد) .

وقد حكى الله سبحانه وتعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه كسر الأصنام لله إذ جعلهم جذاذا ، فالفتى من كسر صنما واحداً فى الله . وقد قيل (الفتوة ألا تكون خصما لأحد) وذلك فيما يتعلق بحقوق العباد ، أما فى حقوق الله وابتغاء مرضاته ، فالفتوة أن تكون خصما لكل ما سواه وإن كان الحبيب المصافى ، فالسائر إلى المحبوب لا يقف مع حظوظ النفس ، بل يفنى ذاته فى ذات من أحب لأن طريق السالكين والفتوة السائرين على دروب الفناء ، الخروج عن نفوسهم فضلا عن حظوظها ، لأن الفتوة ، العمل على أن يكون الفتى لله لا بنفسه ، والرضى بأحكامه ساءته أم سرته . والخروج عن النفس ، هو حبسها على مراد الله وبذلها فى إقامة دينه وتنفيذه بين أهل المعارضة والبغى والعناد ، يصيح فيهم بالنصائح جهاراً لا تأخذه فى جهادهم فى الله لومة لائم ؛ وهذا تعذيب للنفس فى حب الله وإفنائها فى ذاته ، وهذا عند الفتى الصادق أعظم العيش وأفر الحظ .

ولو ذهبنا نتقصى أقوال القوم فى الفتوة ونحللها لطال المقام وتشعب بنا الأمر فنكتفى بهذا القدر . ونسأل الله التوفيق ، والأستاذ ضياء الدخيلى من الله حسن الجزاء ومنا وافر الشكر .

(أسيوط) عبد الموجود عبد الحافظ

مراجعه .

١ — الأعلام الذين ذكروا فى هذا المقال سنفرد لكل منهم بإذن الله بحثاً خاصاً به .
٢ — المراجع التى استقينا منها هذا المقال .
١ — مدارج السالكين .
٢ — الرعاية لحقوق الله .
٣ — مكارم الأخلاق .
٤ — التعرف لمذهب أهل التصوف .
٥ — صيد الخاطر .
٦ — المواقف .
٧ — التصوف الاسلامى .

تاريخ الأدب العربى

للأستاذ الزيات

نفدت الطبعة العاشرة من هذا الكتاب

أما الطبعة التى تباع الآن فى البلاد العربية

فاحترس منهـــا

انها طبعة مزيفة فيها النقص والخطأ والتحريف

والتشويه زيفها أحد الكتبيين فى القاهرة

انتظر الطبعة الحادية عشرة قريبا

طبعة أنيقة صحيحة فيها زيادات كثيرة

ولاسيما فى العصرين العباسى والحديث